قصة قصيرة للكاتبة : أنغام التميمي

موعد الخلود

كانت الليلة ثقيلة على بغداد، سماء الشتاء الملبّدة بالغيوم أرخَت ستائرها على المدينة، كأنها تشعر بما سيحدث بعد ساعات، في صمت تلك اللحظات، كان المطار يبتلع أنفاسه، يترقب القادمين والمغادرين، لكنه لم يكن يعلم أنه سيودّع رجلين غيّرا وجه التاريخ في هذه الأرض.

على بُعد مئات الكيلومترات، في طهران، كان قاسم سليماني يجلس في غرفة صغيرة مضاءة بمصباح خافت أمامه خرائط، وعشرات الأوراق، وملفات تحمل أسماء مدن، وقرى، لكن عينيه كانتا معلّقتين على صورة قديمة: مقاتلون في الجبهة، يتبادلون الخبز في عزّ الحصار.

ابتسم ابتسامة خفيفة، ثم نهض، حمل حقيبته، وارتدى معطفه الأسود، لم يكن بحاجة إلى حراسة أو مراسم بالنسبة له، المهم أن يصل إلى بغداد، حيث ينتظره رفيق دربه... أبو مهدي المهندس.

أبو مهدي، الرجل الذي يشبه الأرض في صلابتها وهدوئها، كان في ذلك المساء يتفقد مواقع الحشد الشعبي على أطراف العاصمة، المطر الخفيف كان يبلل كتفيه، وهو يسير بين المقاتلين، يربّت على أكتافهم، ويسألهم عن احتياجاتهم، لم يكن قائداً من وراء المكاتب، بل كان دائمًا في الخطوط الأولى، حيث رائحة التراب والبارود تختلط برائحة الخبز الطازج من مواقد الجنود.

التقى الرجلان منذ سنوات طويلة، في ساحات مقاومة شديدة، وربطت بينهما أخوّة أكبر من كل انتماء في سوريا، في العراق، في كل جبهة كانت النار تشتعل، كانا يقفان معًا. أحدهما يعرف الطرق الخفية لعبور الحدود، والآخر يعرف كيف يشعل قلوب الرجال بالشجاعة.

ذلك المساء، كانا يخططان لمرحلة جديدة بعد أن انحسر خطر داعش، لكن الأفق كان محملاً برياحٍ أخرى رياح سياسية، وعواصف خفية، لم تكن أقل خطرًا من البنادق.

في مطار بغداد، عندما وطئت قدما سليماني أرض العراق، كان المهندس في انتظاره، العناق بينهما لم يكن طويلاً، لكنه كان دافئًا، يشبه وداعًا مؤجلاً منذ زمن. تبادلا بضع كلمات، ثم صعدا معًا في سيارة سوداء كانت بانتظارهما.

لم يكن أيٌّ منهما يعلم أن تلك السيارة ستكون آخر ما يضمّهما حيَّيْن، في الطريق، كانت بغداد هادئة على غير عادتها، الشوارع شبه خالية، أضواء المصابيح الشاحبة ترسم ظلالاً طويلة على الإسفلت المبلل، بداخل السيارة، كان الحديث يدور حول المستقبل، عن إعادة إعمار ما تهدّم، وعن الشباب الذين آمنوا بأن دماء الشهداء تزرع الحياة.

وفجأة، في السماء التي كانت غارقة في السواد، لمع ضوء خاطف، لم يكن برقًا، ولم يكن نجمًا، كان وميضًا معدنيًا يحمل الموت، في لحظة، انشطر الليل إلى نار ودخان، دوّت الانفجارات، وارتجّت الأرض توقفت عقارب الزمن عند تلك الثانية، لتكتب نهاية فصل وبداية آخر.

سقطت السيارة كتلةً من اللهب، وتطايرت الشظايا كنجومٍ حمراء لم يبقَ من الجسدين سوى ما تحمله الأرض من أثر، وما تحمله السماء من روح، لكن الحكاية لم تنتهِ عند ذلك الحاجز المحترق، ففي كل مكان، كانت هناك عيون تبكي، وقلوب تقسم أن الدم الذي سال لن يذهب هباءً.

في صباح اليوم التالي، كانت بغداد تستيقظ على خبرٍ لم يكن في حسبان أحد، الإذاعات، القنوات، وكل صفحات الأخبار تحمل الجملة نفسها:

"استشهاد الجنرال قاسم سليماني، ونائب رئيس الحشد الشعبي أبو مهدي المهندس، في غارة أميركية قرب مطار بغداد."

في لحظة، تحوّل النبأ من خبر عاجل إلى صاعقة ضربت قلوب الملايين، الأسواق توقفت، المدارس أُغلقت، المساجد امتلأت بالدعاء والدموع في كل بيت، كان هناك من يعرف من هما هذان الرجلان، أو على الأقل يشعر بوقع غيابهما، في النجف، وبين الجموع التي احتشدت لتشييعهم، كان صوت الأذان يختلط بالبكاء.

النعوش المغطاة بالرايات، تتهادى بين الأيدي، وكأن الأرض نفسها تحاول أن تطيل لحظة الفراق أصوات التكبير، الأناشيد، والدموع التي تتساقط على الخدود، كلّها كانت تقول شيئًا واحدًا:

"هذان القائدان لم يموتا... بل صارا رايتين."

في تلك اللحظة، بدا وكأن الزمن انقسم إلى ما قبل الغارة وما بعدها فالمعركة التي خاضاها لم تنتهِ، لكنها تغيّرت، لم يعد الأمر قتالًا في ساحات مفتوحة ضد عدوّ ظاهر، بل صار مواجهةً ضد الخوف واليأس، وضد النسيان الذي يحاول أن يمحو أسماء الأبطال.

أبو مهدي، الذي كان يمشي بخطى واثقة وسط المعارك، صار يمشي الآن في قلوب رجاله، وصوته الذي كان يدوّي في ساحات التدريب، صار يدوّي في الأغاني الشعبية والحكايات التي يتناقلها الناس.

وسليماني، الذي عرف دروب الجبال والحدود كما يعرف كفّه، صار يعرف دروب الأرواح، يطلّ على المقاومين في أحلامهم، ويجلس معهم في سكون لياليهم، حين يستعيدون صورته بابتسامته الهادئة، وعينيه المليئتين بالتصميم.

في مدارس الجنوب، صار الأطفال يرسمون صورهما على دفاترهم، وفي القرى البعيدة، حين تُذكر الحكايات عن أيام التحرير، يتكرر اسماهما كما لو كانا جزءًا من التاريخ القديم، وكأنهما أسطورة لا تُنسى، ومع مرور الأيام، لم يخفت صدى تلك الليلة بل صار مثل طَرقات على جرسٍ ضخم، يذكّر الجميع أن النصر ليس طريقًا مفروشًا بالورود، بل طريقًا محفورًا بالدم والتضحيات.

لقد رحل القادة، لكنهم تركوا ما هو أثمن من وجودهم الجسدي... تركوا فكرة، وفكرة النصر، حين تتجذّر في قلوب الناس، لا تموت، وهكذا، صار اسم قاسم سليماني وأبو مهدي المهندس رمزًا لكل من يرفض الانكسار، ولكل من يؤمن أن الحق يحتاج إلى رجال لا يهابون الموت.

في آخر المشهد، حين غربت الشمس عن بغداد في ذلك اليوم، كان هناك مقاتل شاب يقف على الساتر الترابي، يرفع سلاحه نحو الأفق، ويهمس:

"نم قرير العين يا أبا مهدي... ويا سليماني، إنّا على العهد باقون."